مواصفات الخطاب الحجاجي في شعر الحرب في العصر الجاهلي
(أيام العرب لأبي عبيدة أنموذجًا)

عباس العميري
ماجستير، قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة أصفهان، إيران
alhba7135@gmail.com
د. سمية حسنعليان (الكاتبة المسؤولة)
أستاذ مشارك، قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة أصفهان إيران
s.hasanalian@fgn.ui.ac.ir
د. مشتاق طالب الشمري
أستاذ، قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة واسط، العراق
mtalib@uowasit.edu.iq

Specifications of argumentative discourse in war poetry in the pre-Islamic era
(Ayyam al-Arab by Abu Ubaidah as a model)

Abbas Al-Amiri
MA , Department of Arabic Language and Literature , University of Isfahan , Iran
Dr. Somaya Hassanalyan (Responsible writer)
Associate Professor , Department of Arabic Language and Literature , University of Isfahan , Iran
Dr. Mushtaq Talib Al-Shammari
Professor , Department of Arabic Language and Literature , University of Wasit , Iraq

الملخص:-

إنّ الحجاج جنس خاص من الخطاب، يعرض فيها المتكلم دعواه مدعومة بتبريرات وتعليلات، عبر سلسلة من الأقوال والشعر العربي القديم شعر معارك وأيام، ويكون الحجاج معلما واضحًا ملائماً للشعر الحربي الجاهلي حيث يستخدمه الشاعر الجاهلي كثيراً ما لدعم كلامه بتبريرات وتعليلات، من منطلق هذا الأمر تحاول هذه الدراسة من خلال المنهج الوصفي التحليلي واللساني كشف الغطاء عن الظاهرة التّداوليّة الحجاجيّة لأجل إبراز فعالية المنهج اللساني التداولي في دراسة الخطاب الشعري، وتركيز البحث هو علي أنواع الحجج في أشعار الحرب الموجودة في كتاب أيام العرب لأبي عبيدة ودراسة إستراتيجية الإقناع في هذه الأشعار، وقد تم تحقيق ذلك بدراسة الروابط الحجاجيّة التي تمّ توظيفها، وبالاعتماد على النظرية الحجاجيّة، لتكون عونًا في الكشف عن أسرار الظاهرة الأدبية. ما توصّلت إليه هذه الدراسة هو أنّ قول الإنطلاق، وقول العبور، وقول الوصول تعدّ دواعم هوية النص الحجاجية في شعر الحرب في العصر الجاهلي. وأن من أهم القيم المشتركة التي تم ذكرها في الكتاب فهي: التشدد في الدين عند الجاهليين، ومزاولة الحرب في أي ظروف ولو أصعبها، كما أن هناك عدة أطروحات ظهرت في الكتاب وهي في مديح الأبطال بسالة وقبولهم المسئولية عما يجري حولهم، وألوهية نسبهم وولادتهم، ورغبتهم في الخلود.

الكلمات المفتاحية: الشعر الجاهلي، أيام العرب، أبو عبيدة، الخطاب الحجاجي.

Abstract:-

Argumentation is a special type of discourse in which the speaker presents his claim, supported by justifications and explanations, through a series of sayings and ancient Arabic poetry, such as poetry about battles and days. Argumentation is a clear feature appropriate for pre-Islamic war poetry, as pre-Islamic poets often used it to support their words with justifications and explanations. Based on this, this study attempts, through a descriptive, analytical, and linguistic approach, to uncover the phenomenon of argumentative discourse in order to highlight the effectiveness of the linguistic-discursive approach in studying poetic discourse. The research focuses on the types of arguments in the war poems found in the book "Days of the Arabs" by Abu Ubaidah, and on studying the strategy of persuasion in these poems. This was achieved by studying the argumentative links employed, and by relying on argumentative theory, to help uncover the secrets of the literary phenomenon. This study concludes that the premise of departure, the premise of crossing, and the premise of arrival constitute the pillars of the argumentative text's identity in pre-Islamic war poetry. Among the most important common values mentioned in the book are: religious strictness among the pre-Islamic people, and the practice of war under any and all circumstances, even the most difficult. Several theses also appear in the book, praising the heroes for their bravery and acceptance of responsibility for what happens around them, the divinity of their lineage and birth, and their desire for immortality.

Key words: Pre-Islamic poetry, Arab days, Abu Ubaidah, argumentative discourse.

١. المقدمة:

من التراث العظيم المهم الذي وصل إلينا هو كتاب أبي عبيدة، ألا وهو «أيام العرب» الذي جمع فيه أيام العرب في العصر الجاهلي. والاهتمام بالتراث أمر لا ينكر أحد أهميته لأن دراسة التراث والبحث فيه وخاصة بالمناهج والمكاتب النقدية الجديدة يفتح الآفاق الجديدة أمام المتلقي للتعرف عليه.

هذا من جهة ومن جهة أخرى فإنّ كل علاقة حجاجية - جدلية منها أم خطابيةً - تتكون علي الأقلّ من ثلاثة عناصرَ وهي: قول الإنطلاق، وقول الوصول، وقول أو أقوال العبور. فتنبثق من هذه المكونات الأساسية ثلاث منابت كبري للعملية الحجاجية وهي: المكون السياسي - الثقافي، والمكون المنطقي، فالمكون اللغوي. فمن الطبيعي أنّ علاقات التأثير سارية دائماً بين هذه المكونات. فيعتمد الحجاج علي مقومات منها: توجهه إلى جمهور معين في أوضاع خاصة فليس هنا رامياً إلى التأثير العقلي وإنما إلى إثارة المشاعر والإنفعالات، وهذا هو الحجاج الخطابي. وأما الحجاج الجدلي فيرتكز علي مناقشة الآراء بشكل نظري محض، رامياً إلى التأثير العقلي المجرد والتبكيت وفرض الرأي. فيؤثر بعض المحاور من خارج الخطاب - كالثقافة والدين والعلاقة السائدة علي أجواء الخطاب - علي اتخاذ أحد النوعين (شارودو، ٢٠٠٩: ٢١ - ٢٣). ومن الأمور التي قد تساعد المحلل علي تكوين رؤية شاملة نسبياً للنص هي: النظر في الوسائل اللغوية المستخدمة للحجاج، رامياً إلى رسم خارطة ذهنية لتلك العملية رغم صعوبته. فيري مشبال (٢٠١٧: ٤٠) أنه لايمتلك المحلل الذي يقارب نصاً وفق مجريات التحليل البلاغي، أي أدوات تسعفه من القبض علي النص في كليته ولكنه يقدر علي تحليل أجزاء من النص فقط، كالحوارات، ووصف الشخصيات، والمواضع المشتركة وغيرها.

أسئلة البحث:

انسياقا من هذا انطلق هذا البحث لدراسة الخطاب الحجاجي في كتاب أيام العرب لأبي عبيدة مسلطا الضوء علي أشعار الحرب محاولا الإجابة عن الأسئلة التالية:

١. ما مواصفات الخطاب الحجاجي في شعر الحرب في كتاب أبي عبيدة؟

٢. ما دور الروابط الحجاجية في تحقيق الإقناع؟

أهداف البحث:

استهدف البحث كشف الغطاء عن الظاهرة التَّداوليّة الحِجَاجيّة؛ لأجل إبراز فعالية المنهج اللساني التداولي في دراسة الخطاب الشعري، وتركيز البحث عن أنواع الحجج التي اعتمدها (أبو عبيدة) واستراتيجية الإقناع في شعره بدراسة الروابط الحِجَاجيّة التي وظفها، بالاعتماد على النَظَرِيّة الحِجَاجيّة، لتكون عونًا لنا في الكشف عن أسرار الظاهرة الأدبية.

كما يحاول البحث في بيان الاتصال الوثيق بين الشّعر والحِجَاج؛ نقضًا لمن يرى الانفصال بينهما؛ لأن الشّعر تجربة وجدانية فردية، والتجربة الفردية لا تنال قبول المستمع الكوني عادة؛ ولذا فهي تنال حظًا وافرًا من أهمية الدفاع عنها، والحِجَاج لشرعيتها، بالأضافة إلى أن الشعر مفعم بعنصر (التأثير) الَّذِي يروم الحِجَاج، ويقوم عليه.

منهج البحث:

وللإجابة عن الأسئلة فاتخذ البحث المنهج الصفي التحليلي وهذا ما تتطلبه طبيعة الموضوع باعتبار أن الوصف يتوافق مع الدراسة اللُّغويّة، وسنقوم بتحليل شعر أبي عبيدة تحليلًا تداوليًا باحثين فيه عن أهم الروابط الحِجَاجيّة المعتمدة. وكذلك اعتمدنا على المنهج التَّداوليّ؛ لأن الإقناع والحِجَاج ضمن الدراسات التَّداوليّة.

خلفية البحث:

هنالك كثير من الدراسات التي قُدمت عن الحِجَاج بصورة عامة وعن الحِجَاج الشعري بصورة خاصة و...ولا يسع هذا الموجز ذكر جميعها وسنكتفي بذكر البعض منها:

- دراسة مكي شامة، (٢٠٠٩م) الموسومة بـ«الحجاج في شعر النقائض دراسة تداولية، رسالة ماجستير، الجزائر: جامعة مولود معمري تيزي وزو، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، اعتمدت الباحثة في هذه الدراسة على نقيضتين إحداهما لجرير والأخرى للفرزدق، منطلقة منهما للبحث عن القوانين التَّداوليّة التي تحكم النقائض في العصر الأموي، باعتبارها نصوصًا فنية من جهة، وباعتبارها مناظرات شعرية من جهة أخرى، وقد استعانت بمنهج تحليل الخطاب؛ باعتبار النقائض تفاعلًا خطابيًا.

- دراسة صلوح مصلح الحربي، الخطاب الحِجَاجي في شعر عنترة بن شداد العبسي: دراسة وصفية تحليلية، بحث منشور، مركز البحوث والدراسات التاريخية، جامعة القاهرة، (٢٠١١م) وقد درس الباحث الخطاب الحِجَاجي في شعر عنترة بن شداد العبسي مركزًا على أنواع البنى الحِجَاجية، وعلاقتها بغاية المتكلم، ودرس أيضًا العلاقات الحِجَاجية وأنواعها، ومدى ارتباطها بغايات المتكلم. وقد اعتمد في ذلك على تصنيف بيرلمان وتيتيكاه في كتابهما الخطابة الجديدة، وخرج إلى وجود علاقة بين الفوارق الواقعة في الحجج المختلفة في شعر عنترة، وكذلك العلاقات التي تربطها؛ نظرا لاختلاف غايات المتكلم.

- دارسة هيثم سرحان، الخطاب الحِجَاجي في شعر بشار بن برد: مقاربة في تحولات الهوية الثقافية، بحث منشور، جامعة أم القرى، (٢٠١٣م) وقد اتخذ الباحث في هذا البحث معطيات النظريات الحِجَاجية منفذا للكشف عن هوية الشاعر المضطربة، ووصل إلى شعوره بالاغتراب النفسي نتيجة التحديات التي واجهها، والتي ظهرت بشكل بيّن في شعره، حتى وصل إلى درجة عالية من الخصومة مع الهوية الْعَرَبِيّة.

- دارسة محمد شاكر الربيعي، ونورة محمد عباس، معطيات الوقائع الحِجَاجية عند الشعراء السود، بحث منشور، مجلة كلية التربية الأساسية للعلوم التربوية والإنسانية، جامعة بابل، (٢٠١٦م). وقد ركزت هذه الدراسة على أحد أقوال العملية الحِجَاجية، وهي أقوال الانطلاق، وما تضمنتها من معطيات، مثل: الوقائع، والحقائق، والافتراضات، والقيم. وقد توصل الباحثان إلى أن الشعراء السود قد توصلوا بوسائل مأخوذة من الواقع للدفاع عن أنفسهم؛ وذلك بسبب العقدة التي عانوها من لونهم.

- دارسة علية بيبية، الحِجَاج في شعر الصعاليك بين التواصل واللا تواصل، بحث منشور، مجلة كلية الآداب واللغات، جامعة تبسة، الجزائر، (٢٠١٦م) وقد ركزت الباحثة في هذه الدراسة على الآليات المنطقية واللغوية لدراسة مفهومي (التواصل) و(اللا تواصل)، فخرجت إلى أن الآليات المستخدمة في شعر الصعاليك قد تكون مؤشرًا على تواصل الشاعر الصعلوك مع ذاته، أو أنقطاعه عن مجتمعه الَّذِي عانى منه.

- دراسة خديجة بوخشة (٢٠١٠م) الموسومة بـ «تقنيات الحجاج في شعر المتنبي» قد قامت الباحثة بدراسة شعر أبي الطيب المتنبي كأنموذج تحليلي حجاجي لولوج عوالم الخطاب الشعري محاولاً استجلاء مواصفاته، وفق إجرائية تداولية. ما توصّلت إليه هذه الدراسة هو أنّ شعر المتنبي يزخر بأنواع مختلفة من الحجج؛ فقد اعتمد أحياناً علي حجج شبه منطقية التي احتفظت بالقدرة علي الإقناع، كما اعتمد كذلك علي حجج مؤسسة علي بنية الواقع؛ فاتسمت الحجة بالواقعية واتخذت بعداً توضيحياً، كما اعتمد في أحيان أخرى علي حجج تبنين الواقع من شاهد ومثال وقدوة وتمثيل، ليحمل متلقيه علي الإذعان والتسليم بوجهة نظره.
- رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير في اللغة العربية لخديجة بوخشة (٢٠٠٩م) موسومة بـ«الروابط الحجاجية في شعر أبي الطّيب المتنبي مقاربة تداولية» لقد حاولت الباحثة في هذه الرسالة كشف الغطاء عن الظاهرة التداولية الحجاجية، من أجل إبراز فعالية المنهج اللساني التداولي في دراسة الخطاب الشعري. ركز البحث علي أنواع الحجج التي اعتمدها المتنبي وإستراتيجية الإقناع في شعره بدراسة الروابط الحجاجية التي وظفها، بالاعتماد علي النظرية التداولية الحجاجية.
- مقالة سعاد سيد محجوب (٢٠١٥م) الموسومة بـ «تحليل الخطاب الحجاجي في عينية حسان بن ثابت؛ لقد هدفت الباحثة في هذه الدراسة إلى قراءة الخطاب الشعري الحجاجي الذي جادت به قريحة حسان بن ثابت، ودوره في الرد علي شعراء الوفود، ومنهم وفد بني تميم.

بناء علي ما سبق نلاحظ أنّ الحجاج كان موضع اهتمام الباحثين إلا أنّنا لم نجد دراسة تتناول البنية الحِجَاجية في شعر الحرب في العصر الجاهلي بالتركيز علي أيام العرب لأبي عبيدة، من ثم تعالج رسالتنا جوانب لم يعن بها الباحثون.

٢. أبو عبيدة وكتابه «أيام العرب»:

أبو عبيدة كان أعلم الثلاثة بأيام العرب وأخبارهم وأجمعهم لعلومهم، وكان أكمل القوم قال عمر بن شيبة: كان أبو عبيدة يقول: ما التقى فرسان في جاهلية ولا اسلام الا عرفتهما وعرفت فارسيهما، وهو أول من ألف في غريب الحديث. وقال السيوطي نقلا عن

أبي الطيب: أخبرنا جعفر بن محمد أخبرنا ابراهيم بن حميد قال قال أبو حاتم: إذا فسرت حروف القرآن المختلف فيها وحكيت عن العرب شيئا فانما أحكيه عن الثقات منهم، مثل أبي زيد والاصمعي وأبي عبيدة ويونس، وثقات من فصحاء الاعراب وحملة العلم (النقوي، ١٤٠٤هـ، ٨: ٣٤)؛ وأما كتابه «أيام العرب» فيعدُّ من أقدم وأثري المصادر التاريخية في رواية الحروب فيناولها في الفترتين: قبل الإسلام وبعده، بالرغم ما فقدنا منه اليوم، فقد تمّ اختلاق عمل جديد جماً وفق ما ادعاه المحقق للكتاب مقتفياً لما يوافق المصادر الأخرى ومحارياً للمسارات والقيم الأصلية عند المؤلف في الصورة والفحوى ريثما يمكن. فإن لم يحو نثراً جاهلياً فهو شعر جاهلي. وإن لم يحو الأصل من النوعين، فالصورة علي الأقل - ولا نزعم أنها في قوة الأصل - فإذا افتقدنا هذا وذاك، فهو محمول إلينا في أوعية قادمة من عهد بعيد جداً. وهي كافية أن نجعل منه أثرا نفيساً. فحققه الدكتور البياتي في إطار مرحلتين صعبتين، فالأول يتعلق بالأصل والنشأة باعتبارها المحيط الخارجي وبما فيه من التاريخ والجمع والسرد لشرح الوقائع والأيام. فتصدي إلى دور الرواة في إيصاله إلى الناس، ثم إلى مدي ارتباط هذه الملاحم بالحلقات الملحمية السامية القديمة. وأما المرحلة الثانية فتتعلق بالخلق والتكوين والتوغل في داخل الأيام وسبر أعماقها من الأساطير والآلهة وغيرهما من الرموز الثقافية كالثور والحية وغيرها من النبات والكواكب والأوثان مثلاً. ثم يشير إلى صعوبة أخرى - ما وراء مشكلة الفقدان - مثيرة لرغبة الباحثين وترددهم في أصالة فحوي الكتاب وصحة عزوه لواضع خاص، وهي مشكلة أسبقية الشعر علي النثر وذلك لأن الدلائل المثبتة لصحة عزو الأشعار موجودة في ملاحم البابليين والآشوريين مثلاً والمعثورة عليها أو علي الألواح المبتقية من تلك العصور تماماً علي بُعد آلاف السنين. غير أن هذه الأدلة غير موجودة في كتاب الأيام نفسه. وبالتالي فيقدم البياتي مشكلة أخرى وهي الفجوة الزمنية القائمة بين عسر أبي عبيدة والعصر ما قبل الإسلام المدعو جاهلياً. فلها وقعُها علي أصالة الروايات الشفية التي تكون قد وصلت إليه لسبب وفاة الرواة الموهوبين المتقدين حتى زمنه فلابدّ وأن يكون مصدره من المشافهين من أصابوا بزوال الذاكرة وفساد اللحن طبعاً (أبوعبيدة، ٢٠٠٣م: ٥ - ١٠ مقدمة الكتاب). فعليه فيجدر أن ندعو هذا الكتاب منذ البداية ما يلي: أيام العرب قبل الإسلام لأبي عبيدة فالبياتي، بما يبذل الأخير في تأليفه من المعاناة وفحص الجذور كونها ناتجة عن رسالته في الماجستير عن «الشعر في حرب داحس والغبراء»

وغيرها من الرسالات الجامعية حول أيام العرب في العصور الغابرة. فلو افترضنا الخلل وفساد اللحن والضياع واقعاً في جزء من النص الأصلي، فلا داعي للريب عند القيام بالبحث الحجاجي ضمن الفحوي، علي أنّ النص الموجود مازال يدعم تخاطباً خاصاً يعنيه الصاحب الأخير للنص فقط وبدون تدخل الشاعر الذي أنشد هذه القصيدة أو غيرها قبل آلف سنة مثلاً ودعماً منه لحجاج آخر غيره.

٣. مواصفات الخطاب الحجاجي والروابط الحجاجية في شعر الحرب في كتاب «أيام العرب» لأبي عبيدة:

سندرس في هذا القسم من البحث العناصر الثلاث التي تتكون منها العلاقة الحجاجية وهي: قول الإنطلاق، وقول الوصول، وقول أو أقوال العبور.

٣. ١. أقوال الإنطلاق:

يقترح شارودو تقنية ثُلاثية منقسمة إلى: قول الإنطلاق، وقول العبور، وقول الوصول كدواعم هوية النص الحجاجية كما أشرنا إليه آنفاً. وبعدُ فيعتقد بيرلمان أنّ القاعدة العامة والمبدأ الأساس في التأثير بالفاعل الهدف، هو تكيفه مع الفاعل المحاجِج من خلال الإنطلاق من مقدمات مقبولة عنده (بنوهاشم، ٢٠١٤: ٤٢) فللمقدمة أهمية بالغة في تكوين الخطاب الحجاجي. وتعتمد هيكلة المقدمة علي جنس خاص من الأفعال الكلامية كـ الوجيهات الداعمة لتنامي الخطاب واستثارة الآخر فتمهيد غلبة الفاعل منذ البداية. فتعمد الهيكلة أيضاً علي جنس خاص من مواد الأفضل كـ القيم المتفقة حولها الفاعل المحاجج والفاعل الهدف فيبدأ الأول بمسلمة يؤمن بها الآخر للقيام بحجاج يتلقي بقبوله عنده. وكما وجدناه في مدخل الفصل الراهن أن استخدام البياتي للأصالة وعدم فساد الفحوي كمسلمة متفقة بينه وبين عموم الجماهير مقبول جداً في إثارة العموم. ثم نشاهده منافياً لتأثير الأصالة وعدم الفساد – بدون نفي استحسان نفس هذه القيم – فمستنقياً قارئه بشكل خاص، فيثبت عدم تأثير القيم المذكورة في قيمة العمل الراهن بين يديه بانتصاب الأدلة والبراهين من مر العصور واستخدامه مراجع وثيقة تاريخية منها وهي النصوص السامية اعتيدة فالمعاصرة منها وهي الرسائل الجامعية.

٣. ١. ١. الأفعال الكلامية:

يشير أبو عبيدة إلى اليوم بمعنا الشدة والفضيعة إضافة إلى ظرف وقوع الحروب في النموذج الآتي. فنجد معالم هذه الشدة مضاعفاً حين استخدم الشاعر ما يدل علي إغارة عدو مزود تماماً عليهم وأبطالهم بسالي يفتكون العدي أيضاً خفياً فيبدأ بقوله «ساروا إلينا» بديلاً من قاتلونا مثلاً لأنها تدل علي المفاجئة والرهبة معاً. فيتزايد خوف المخاطب بالإضافة إلى لفت انتباهه منذ البداية هنا، إذا يصرّح علي الإغارة عليهم خفياً وإن كان نهايته الإنتصار عليهم والتحاقهم أضراراً فادحة يكون قد سجلوها فلاينسون هذه الهزيمة أبداً، ثم الصرف عن ذكر التفاصيل:

ساروا إلينا وهم صُيدٌ رؤوسهمُ فقد جعلناهم يوماً كأيامِ

(أبو عبيدة، ٢٠٠٣م: ٦٨)

فأشار أبوعبيدة إلى تسمية «الإعتذاريات» لبعض ما أنشده النابغة بأنها سطحية. فيذوب السامع أمام ما كان صوره النابغة من مشهد دموي نُصبَ عينه - بخلاف المتلمس - فيخشي هو أن يكون من بين ضحايا معركة أثارته الملك الشرس عمرو بن هند كقاتل طرفة وصاحب الأخدود الذي كان يشعل فيه النيران ويلقي به الناس. فيعني باستخدام ألفاظ دالة علي شدة الخوف مثل «أبي القلب» و «فماأنذروا» ضرورة المجاراة مع مشية الملك والإعتبار بما غبر علي قوم السدير مثلاً فلايتأمل مثله أحد رغم ما يتمتعون به من ارفهية ورخاء العيش:

أبي القلبُ أن يهوي السديرَ وأهلَهُ وإن قيلَ عيشٌ بالسدير غريرُ

فما أنذروا الحَّ الذي نزلوا بهِ وإنّي لِمن لم يأتِهِ لنذيرُ

(المصدر نفسه: ٩٢)

يطالب الشاعر في النموذج الآتي أن يبلغوا منه المواساة من خلال الإستغفهام إلى جانب الملك لسبب الزريئة وهي قتل ابنه الأخير علي أيدي بني تميم في يوم أوارة فكأنه لايتجروء علي ذلك بنفسه. علماً بأن الشعر سيبلَغ علي أفواه الرواة ولكن يوحي تصريحه باللفظة فخامة الملك وجلالته فيمهّد لقبوله فيختصه ضمن غيره من المواسين وينالة الصلة أحياناً بدون استثارة غضبه فيبدأ الحجاج بما يدلّ علي ضعف الإنسان في الخلق وتعرضه

للفقد الفناء دوماً. ثمّ يحاول استثارة الملك علي طلب ثأر فقيده بتنشيب الحرب ضد زرارة وقد تركت جثته عاريةً بارزة لرياح الصحاري فالسبع الضواري طبعاً فعبر عن خيانته هذه بوصفه وفياً جداً علي سبيل التهكم أيضاً:

مَـــن مُبلِـــغٌ عمـــراً بـــأ ... نّ المـــرء لم يخلَـــق صـــبارة

وحـــوادثُ الأيـــامِ لا ... تبقـــي لهـــا إلّـــا الحجـــارةُ

هـــا أنّ عجـــزةَ أُمّـــهِ ... بالســـفحِ أســـفلُ مِـــن أوارة

تســـفي الريـــاحُ خـــلالَ كشـــ ... ـــحَيهِ وقـــد ســـلبوا إزارَه

فاقتُـــل زرارةَ لا أري ... ـك في القـــومِ أوفى مـــن زرارة

(المصدر السابق: ١١٦)

فبكي الملك لما سمع غناءه وكانت النسوة تحمس الجند علي القتال في يوم ذي قار. فنجد لبيد بن ربيعة يفتخر بمآثر قومه يوم سلان ضد جيش الفرس النخبة يوم السلّان أو قاع القرنتين كما يدعي. فيعد بسالة قومه منع الضيم أو رفض القهر لأنّ الملحمة تصور الرفض العربي الشوري للحكم الفارسي الملوكي فيعد أنفسهم «حمساً» أي مشددين في دينهم في الجاهلية و «لقاحاً» لا يخضعون للملك الجبار، فهي نزعة مهدت لوحدة مصيرية بينهم وقد كانت الأنظار متجهة نحو مكة التي تمثل قمة الفكر العربي قديماً وجديداً:

إني امـــؤٌ منعـــت أرومـــةُ عـــامرٍ ... ضـــيمي وقـــد حنقـــت علـــيّ خصـــومُ

وعـــداةُ قـــاع القـــرنتين أتـــاهم ... رهـــواً يلـــوح خلالهـــا السُـــويمُ

هـــا أنّ عجـــزةَ أُمّـــهِ ... بالســـفحِ أســـفلُ مِـــن أوارة

بكتائـــبٍ رِجـــحٍ تعـــودّ كبشُـــها ... نطـــحَ الكبـــاش كأنهـــا نجـــومُ

(أبو عبيدة، ٢٠٠٣م: ٣١٤)

وبعد فأنشد السفاح في خزازي وهو اسم جبل علي الطريق الذاهبة إلى مكة فيصف ذهول الجيش وزعرهم علي غرار رمة الشاة وتعبهم الشديد لثقل حملهم ووعورة دربهم ولم يناموا ملياً. فكانوا ليوقدوا النار علي رأس الجبل بعد وصولهم هنالك ليعرف عليهم الحلفاء الملتحقون بهم. فانهزم الأخر فيما بعد، إثر خبآء نصب العدي للأُخر طيلة الدرب،

فلم يتمكنوا من مواصلتهم أبداً. فيحاول الشاعر أن يصف مدي عيهم تجاه الظروف الطارئة فيمهد الأذهان لانبراء ذمتهم عن شبهة الكسل والتواني تجاه هزيمة فادحة ودمار شامل لابد من وقوعها قريباً:

وليلـــةً بـــتُّ أوقِـــدُ في خـــزازي ... هـــديتُ كتائبـــاً مـــتحيراتِ

ضـــللن مـــن الســـهاد وقلـــن لـــولا ... ســـهاد القـــوم أحسِـــب هاديـــات

(المصدر نفسه: ٣٨١)

٣. ١. ٢. القيم المشتركة:

فيروي الكاتب عن عمرو بن كلثوم في أيام قومه وهو يحاول إطلاق مصطلح الأيام علي الحروب التي قامت بين القبائل في العصر الجاهلي. فنجد الشاعر منتهزاً معني الوضوح والتسني المستور في لفظ «يوم» للدلالة علي بسالة قومه وعدم توانيهم عند استغراق الحروب مدي، حيث يصرح لفظة «غر» في وصف تلك الأيام الشتي، وهي جمع غرّاء، صفة مشبهة بمعني اللامع والواضح:

وأيـــام لنـــا غـــرٌّ طِـــوالُ ... عصـــينا المُلـــك فيهـــا إن نـــدَينا

(أبو عبيدة، ٢٠٠٣م: ٦٤)

فيعدّ الشاعر ثورة قومه علي كل من لا يجاريهم - وإن كانوا من الجبابرة - يعده من معالم البسالة والأصالة عندهم فلا يتشقون الحسام بغياً. ثم نجد صاحب الكتاب مشتبثاً إلى خرافة في قول المتلمس وهي الشفاء في امتصاص دم العدوّ فيجب اندلاع الحرب ضدّه وهذا يعني حثُّ الملك علي اندلاع الحرب ضد خصومه من الدارميين وتجنب التواني والكسل فهو الذي لا يستحسنه العقل أبداً:

مـــن الـــدارميين الّـــذين دِمـــاؤهمُ ... شـــفاءٌ مـــن الـــداء: المجنـــة والخبـــلِ

(المصدر نفسه: ٨٣)

وها هو ما ينسب إلى عبدالله بن رواحة كما يرويه أبوعبيدة فيدعو جميع المقاتلين أن يطيعوا حدود الله وأوامر الرسول ﷺ فلا يعتدوا علي الأبرياء باغين، فيدركوا جنة الفردوس جزاء لجهادهم وإلا فيستوجب قصاصهم فلا يعدون ضمن الشهداء:

يـــا نفـــسِ ألّـــا تقتُلـــي تمـــوتي هـــذا حِمـــامُ المـــوتِ قـــد صـــليتِ
ومـــا تمنيـــتِ فقـــد أُعطيـــتِ إن تفعلـــي فعلَمـــا هُـــديتِ
وإن تـــأخرتَ فقـــد شـــقيتِ

(المصدر السابق: ١٩٨)

ومما يرويه أبوعبيدة في دوافع وقوع الحروب، هو فتك العدي ضدّ ما يكرمه رهط ما ويحسبه محرما. فيقوم بعقد مقارنة بين قصة ناقة صالح عليه السلام الفحلة في القرآن، التي تمخضت بها الصخرة كما تمخضت المرأة من جانب وناقة البسوس المميزة لحجم ضرعها وطول قوائمها من جانب آخر. فاندلعت الحرب لوجهها حيث تظهر المرأة عنصراً هاماً إلى جانبها، فالبسوس خالة جساس وهي صاحبة الناقة في هذا اليوم، فشجعت جساساً علي قتل كليب لأنّه قتل «السقب» وهو فصيل الناقة فرمي الناقة في ضرعها كما تروي قصة صالح عليه السلام حيث شجعت علي قتل فصيلها «سقب السماء» امرأة بارعة الجمال شخصاً عقر الناقة وهو «قدار». فقد طلبه القوم ليقتلوه، ففر منهم هارباً إلى الجبل. ولكن القوم في يوم البسوس قتلوا السقب ابن السرابوقد سمّوا بالناقة والجمل كثيراً من النجوم أيضاً «كالفنّيق» وهو الجمل العظيم وقالوا عن «سهيل» إذا وقعت عين الجمل عليه مات من ساعته. فيذكر عن نحوس نجمه حيث ولد في «الدبران» و «العقرب» وهي ألهة ملحمية تظهر نجمها بعد هبوط الشمس لتحرس علي الجمل الذي ترقد فيه ليلاً ليدل علي قداسة الجمل عندهم وما اعتراهم قتله من الفساد والحرب. ووُرد هذا الشؤم في أحد أيام العرب حيث لقيَ عبيد بن الأبرص النعمان بم المنذر في يوم بؤسه، فقال شاعرهم مشيراً إلى نحوس طالع اليوم لاندلاع الحرب أساساً فانهزام الملك تلوها:

غـــداةَ تـــوخّي الملـــكَ يلـــتمسُ الحبـــا فصـــادف نحســـاً كـــان كالـــدبران

(أبو عبيدة، ٢٠٠٣م: ٢٤٢)

ثم أشار أبوعبيدة من بعده إلى قصة الجمل الذي نفر من طيء إذا دخلوا علي النبي صلى الله عليه وآله وسلم في فناء المسجد بقوله صلى الله عليه وآله وسلم: «إني خير لكم من العزّي ولاتها، ومن الجمل الأسود الذي تعبدونه من دون الله» ليصل إلى أن عبادة الجمل ودورها في اندلاع نيران الحرب في «يوم الزويرين» أيضاً. فالزويران - بمعني الإلهين - جملان أتت تميم بهما وسط المعركة مجللين

تمامً بحيث لم يطيقا ثقل الحلي علي أعجازهما وسيقانهما فنفرا فزعاً، فانهزمت التميم يدورون حولهما تعبداً! فانتصر الأخر وقد آتي بشيخ سُمّي أصم، وهو رجل فحل باسل شديد الضرب من عهد عاد وإرم يدعي عمرو بن قيس. فيحتج الشاعر هنا بفضيلة الشيخ الباسل علي الجمل المجلل والتقلص من شأن الأساطير في ساحة الحرب قائلاً:

جاءوا بزوريهم وجئنا بالاصم ... شيخٍ لنا من عهد عادٍ وإرم

شيخٍ لنا معاودِ ضربِ البُهم ... يضرب بالسيف إذا الرمح انقصم

(المصدر نفسه: ٢٤٤)

ومن نحس الإتيان بالنوق والجمل عموماً - و في ساحة الحرب خاصة - فيجدر الإشارة إلى مصرع البطل مهلهل بن ربيعة تحت خبط جمل فازع في نهاية المطاف، لتتم بذلك خيوط ملحمة درامية (المصدر نفسه: ٢٤٥). وقد نظروا بعين التعظيم إلى كل ما يتعلق بالناقة والجمل، فبحروا «البحيرة» وسيبوا «السائبة» ووصلوا «الوصيلة» وحموا «الحامي» تقديساً للنوق وفي سورة المائدة (١٠٤): ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ﴾. وفي يوم البسوس إن قوماً أغارو إبلَ جربة بن الأوس فأطردوها بمثابة غير ناقة حرام، فركبها أوس ولحقهم شتماً عليهم. فمنعوه من ذلك، فقال: حرامُه يركب من لا حلال له، فأرسلها مثلاً. فأشار زهير بن أبي سلمي في أيام داحس إلى النظرة التقدسية والتشاؤمية معاً تجاه النوق وعلي ما تحمل في بطونها من التوأمين النحسين تمثيلاً لتزايد أضرار الحرب مر الزمن، فيقول:

فتنتجُ لكم غلمانَ أشأمَ كلّهم ... كأحمرَ عادٍ ثمّ تُلقحُ فتَتئمُ

(المصدر السابق: ٢٤٧)

ومثل ذلك قول الحارث بن عباد في أيام البسوس، حيث شبه المؤآمرة الناتجة عن الحرب - وهي حرب وائل تقع في موضع قريب من مربط النعامة - بلقاح ناقة شؤم البطن حائلة بلا حمل:

قربا مربط النعامة مني ... لَقحت حربُ وائلٍ عن حيال

(أبو عبيدة، ٢٠٠٣م: ٧٨)

وقد ينحدر خوفهم للنوق إلى احتمالية تجسيدها آلهة، فكانوا يخشون نفرته إيجاراً عندما يمرون علي أرض مقدسة أو قبر لعظيم أو رئيس أو مؤله فيتقون ركوبها بداية. فأبطل الإسلام هذه العادة بظهوره ولنا في خبر يوم الكديد من نفرة ناقة شعراء الأيام علي قبر بطل يدعي ربيعة بن مكدّم أيضاً فاعتذر الشاعر عند قبره ببُعد السفر ووحشة الطريق عن نحر ناقته الموهوبة العتيقة عندما تنفر عند موضع اسمه حرّة، كما يتعود اليه القوم حينئذ، رغم ما لم يتمكن من ستر خوفه من اندلاع الحرب أيضاً فقال داعياً هطول الأمطار فوق ثراه:

نفِرت قلوصي من حجارةُ حرّةٍ ... بُنيت علي طلق اليدين وَهوب

لا تنفري يا ناقُ منه فإنه ... سبّاء خمرٍ مسعرٌ لحروب

لو لا السِّفارُ وبعدَ خرقِ مهمةٍ ... لَتركتُها تحبو علي العُرقوبِ

نِعمَ الفتي أدي نبيشةَ بِزّه ... يومَ الكديدِ نبيشةُ بنُ حبيبِ

لا يبعُدَن ربيعةُ بنُ مكدّمٍ ... وسقي الغوادي قبره بذَنوب

(المصدر نفسه: ٢٥٠)

فظنوا آنذاك أن الإبل تمتاز بأكل عظامهم بعد الموتي فأفرطوا في نحرها وعقرها كأنّ نحرهم لها كان إنقاذاً لأنفسهم منها بعد مماتها. فقال الشاعر في «يوم الفروقين». فيقول مهزئاً صفوف العدي جبناً ودماثة: تفاديتم واتقيتم بعضكم ببعض من رماحنا جبناً كما تسلح النيب الخرفة المسترخية مؤخرتها علي العظام البالية، فشبه الرماح بينهم عظاماً تجمعت حولها الإبل:

تفاديتمُ أستاهُ نيبٌ تجمّعت ... علي رمةٍ من العظامِ تفاديا

(المصدر السابق:٢٥١)

فيظهر تقديس الأشجار والغيضات المكرمة في أيام الحرب أيضاً وذلك بعد ما انصرفت «حرب الفجار» بين بني أمية ومرداس بن أبي عامر، فمروا بغيضة تدعي «القرية» واتفقوا علي أن يحرقوا شجرها ليزد رعوها. فلما انشبت النار بها، فانطلقت في سماء الغيضة حيات بيض تنطلق مع الدخان وأثار من الضجيج والأنين ما يشبه وحشة الخدور المحرمات، فقتلت أمية من بعده الجن وختفت مرداساً فيحاول مرداس أن يتبني الحرب شخصياً ليخلص العشيرة عن نقمة الجن بقوله:

إني انتخبتُ لها حرباً وإخوتَه ... إني بحبل وثيق العقد دسّاسُ
إنّي أقوّم قبل الأمر حجتَه ... كيما يقال: ولي الأمرَ مرداسُ

(أبو عبيدة، ٢٠٠٣م: ٢٥٤)

فسمعوا هاتفاً لّما احترقت الغيضة رافضاً محجته لممارسة الوحشية ضد رهط الجن المختبئة في ظلها والتهوين بما يكرمه كلا الطرفان فيوعد أبويهما الغائبين آنذاك بالتنكيل الشديد ضد ابنيهما واحتقاراً لنفسهما لعدم أهلية التخاطب ويدل هذا علي شدة غضب الجن بعد ما التحق بها وبالشجرة الكريمة من الجريمة البشعة:

ويل لحربٍ فارساً ... مطاعناً مخالساً
ويل لعمرو فارساً ... جحاجحاً عنابساً

(المصدر نفسه: ٢٥٦)

ويوجد في شعر الأيام ألوان من الصور لأنواع الآلهة والأصنام ما بين تمثال جميل منحوت، أو صخرة منتصبة أو نجمة مطقّة في كبد السماء البعيدة. واستصحاب الآلهة في الحروب، ظاهرة ملحوظة في الجاهلية. فنشاهد عنترة في داحس والغبراء، فيندد بني الهيجيم لانصرافهم عن ساحة الحرب ليشاركوا في موسم وثني تكريماً لهم لدوار، فيضع حبلهم علي غاربهم لسبب هذه الفظاظة:

تركتُ بني الهجيم لهم دوارُ ... إذا تمضي جماعتهم تعودُ

(المصدر السابق: ٢٥٨)

ومن مناسكهم لزيارة معابد تلك الآلهة بعد انتصار الحرب كانت شد الأسري بقيد وقتله عندها قرباناً. فيروي الكتاب عن شريح الأحوص يخاطب من يدعي أبا لقيط قائلاً:

لقيط وأنت امرؤ ماجدٌ ... ولكنّ حلمك لا يهتدي
فلمّا أمنت وساغ الشرا ... واحتلَّ بيتك في ثهمد

فيواصل قائلاً ورفع رجله فوق مصطبة هنالك، لئلا يطئها هواناً:

وأسلمتُه عند وجه القتا ... لِ وتبخُل بالمال أن تفتدي

(أبو عبيدة، ٢٠٠٣م: ٥٠٩)

وكوكب الزهرة أو عشتروت ويريدون بها كوكب الصباح أو كوكب الحسن، تذكرها أميمة وهي ترثي ابن أخيها أبا سفيان بن أمية في يوم الفجار، فتعدها رمزاً للشدة والنحس للعشيرة بغض النظر عما يظنّ الغير كما تبدي هي، لالتحاق عين أبيها علي هذا الكوكب عندما كان يلاقي مصرعه:

أبي! ليلُـــــــــك لايـــــــــذهب ... ونِـــــطِ الطـــــرفَ بالكوكـــــب
ونجـــــمٌ دونـــــه الأهـــــوا ... لُ بـــــين الـــــدلوِ والعقـــــرب
وهـــــذا الصـــــبحُ لايـــــأتي ... ولا يـــــــــدنو ولايقـــــــــرِب
بعقـــــرِ عشـــــيرةٍ منّـــــا ... كـــــرامِ الخـــــيمِ والمنصـــــب
أجـــــالَ علـــــيهمِ دهـــــرٌ ... حديـــــدُ النـــــابِ والمِخلـــــب

(المصدر نفسه: ٢٦٠)

ومنهم من يعبد الشمس كإحدي الآلهة وجيئت بهذا الإسم في أيام العرب وهو «يوم ذؤاب». فقالت آمنة بنت عتيبة ترثي أباها القتيل في هذا اليوم وهي راجعة عن جثمانه قبيل الزوال، فيصفه بالبسالة والإقدام بعكس عداه المنتعمين المسترخين الذين يبغون جمع الغنيمة من مزاولتهم الوغي فقط وعلي غرار ما مضي من مراثي أميمة علي أبيها:

تروّحنـــا مـــن اللعبـــاء عصـــرا ... فأعجلنـــا الإلهـــة أن تؤوبـــا
علـــي مثـــلِ أميـــة فانعبـــاهُ ... تشـــقُّ نـــواعم البشـــرِ الجيوبـــا

(المصدر السابق: ٢٦٠)

ومما يقال في الأمثال إن فلاناً «كثير الرماد» فيبدو منه معني تقديس الرماد في الجاهلية ولا تكديسها أمام البيت رمزاً لكثرة الضيوف السارين إليهم كما ينشد الشاعر باكياً علي الطلول وهو يلاقيها بعد ثماني سنوات من جديد، فيحتج رداً لمن ينسب بلاء آثارهم علي الفناء بأنها مبتقية بعد ليدل علي كرمهم:

ألا يـــا ديـــار الحـــيّ بالســـبعان ... عفـــت خحـــحٌ بعـــدي وهـــن ثمـــاني
فلـــم يبـــقَ منـــها غـــيرَ ثـــؤيٍ مهـــدّم ... وغـــيرأثـــافٍ كـــالركي دفـــان
وآثارُهـــابٍ أوراق اللـــون ســـافرت ... بـــه الـــريحُ والأمطـــارُ كـــلَّ مكـــان

(أبو عبيدة، ٢٠٠٣م: ٢٦٤)

فقال البغدادي: «والهابي هو دقائق التراب وتراب القبر، والمراد به الرماد، لأن الورقة هي لون الرماد». فيدل أيضاً علي الرماد المبتقية من الطباخة باعتبار ما يسبقه منطمساً. فالغبار وتراب القبر والرماد كلها أصل الأشياء عندهم، والتي تمثل دورة الحياة في رحم الطبيعة بدورها. فينشد أيضاً من يزور قبر عمر بن حممة الدوس وكان أحد من تتحاكم إليه العرب فيصفه كريماً لتكديس الرماد علي رحاب بيته:

لقد ضمّت الأثراء منه مرزّءا ... عظيم رمادِ النار مشترك القِدرِ

حليماً إذا ما الجكن كان حزامةً ... وقوراً إذا كان الوقوف علي الجمرِ

(المصدر نفسه: ٢٩٨)

ثم أشار أبو عبيدة إلى فظيظة مصارع عدد من الملوك قتلاً علي أيدي الطغات والأوغاد وتحليل أسبابها. فكما نعرف عند دراستنا خلال قتل ملوك الجزيرة وكهانها علي يد من يدعي «الحارث بن ظالم» فلم نجد تفسيراً لهذه البشاعة أمراً سوي تسمية بعض القبائل بالحمّس، أي المتشددين بطقوسهم وعاداتهم العريقة! التي تمنعهم من الخضوع للملك كما نشاهده فيما ينشده الحارث المنتمي إلى رهط الجزيمة عند «يوم السلان» فأشار إلى قتله سبعة من الملوك في الكهف مرتقدين علي وسائد من الريحان، فيصرح دافعه بأنه ليس اكتساب الصيت لنفسه فقط بالرغم من عظيم ما يأتي به وبل يحاول اكتساب المكرمة لجميع العشيرة:

أبلِغ جذيمة إن عرضتَ فإنني ... عمداً تركتُهم عبيد سنان

لو كنت من رهط الحرامل لم أعِد ... وبنيت مكرُكةً بكلّ مكان

القاتلين من المناذر سبعةً ... في الكهف فوق وسائد الريحان

(المصدر السابق: ٢٧٠ – ٢٧٥)

فقال أيضاً جابر بن حني خلال يوم الكلاب الأول فيصرح دافعه من قتال الملوك مسائة قصدهم ضد أرضيهم وكيانهم عاثين، فيلومهم علي عدم استشارة شيخ أو كاهن موفق عند كليهما ويدعي عمرو بن مرئد قبل شنهم للغارة ضد جرهم وهو رهط الشاعر أو حليف لهم، فيحذرهم الشيخ سوء مغبتها. ثم يحذر المالك الحاضر الإعلان عن الحرب إذا كرر من فعلته مرة أخرى:

نعاطي الملوك الحقَّ، ما قصدوا بنا ... ولـيس علينا قـتلُهم بمحـرّمِ
أثُفتَ لهم من عقل عمرو بن مرثدٍ ... إذا وردوا ماء ورمح ابن جُرهُمِ
وكنا إذا الجبار سعّر خدّه ... أقمنا له من ميله، فتقوم!

فقد يعود مبدأ تحريم جل العُرب لقتل الملوك إلينا يسبغهم من صفات التقديس والألوهية. فيسمي عمرو بن هند الملك بمحرق مثلاً وهو صنم لبكر بن وائل يقال عنه تقديم ضحاياه عن طريق حرقها ورميها في النيران فيدأب المليك هذا أيضاً بشق أخاديد يشعل فيها النار لرمي الضحايا فيها كما قام به في يوم «أوارة» الذي قتل فيه الملك أو مات، فقدموا مائة من بني تميم - وكانوا من أسري الحرب أحياناً - لتحرق في أخدود ناري كبير قرباناً لموت الملك! فقد ظل الملوك علي قداستهم حتى عهد قريب من الإسلام، فنجد في يوم ذي قار مثلاً أن العرب تخشي قتال الأكاسرة من الفرس. فلما قتل أحدهم فارس من البكر فرجع إلى العرب صائحاً: «يا قومِ إنهم يموتون!» فحطم الأسطورة وهجم الجيش علي الأكاسرة. فأنشد الثداخ بن يعمر الكنعاني بهذا الفتح قائلاً:

القومُ أمثالُكم لهم شعرٌ ... في الرأس، ولا ينشَرون إن قُتلوا

(أبو عبيدة، ٢٠٠٣م: ٢٧٤)

فيحصر البياتي بعض النقاط اللمتازة للملوك والأبطال بالنسبة إلى سائر الناس، فيعدّها مستوحياً بالأساطير الإغريق أو مسرحية أوديب: أم البطل عذراء ومن أصل ملكي فكيفية ولادتهم غامضة علي الجميع فلا نسمع شيئاً كثراً عن طفولته؛ وأبوه ملك أضاً يكون غالباً ما من الأقارب الأدنيين للأم؛ وظرف مولد البطل غير عادية وعند مولده يراد قتله أحياناً ولكنه ينقذ خفية؛ فيربيه أبواه بالتبني في بلاد بعيدة؛ فرجع إلى مملكته ولم يبلغ أشدّه بعد؛ وأخيراً فينتصر علي الملك أو العملاق أو الوحش فيتزوج الأميرة ويصبح ملكاً يحكم فترة من الزمن بلا أحداث حتى يتعرض لسخط الآلهة أو الرعية، فيموت ميتة غامضة مثل ولادته، ومع ذلك فإن له قبراً مقدساً أو عدة قبور علي قمة آلجبل أحياناً. (المصدر نفسه: ٢٧٥).

فكانت العرب يتحالفون بالبعض أحياناً فينحرون الإبل والجرز ويخوضون في دمائها لكي يكون أشد لحلفهم. فكانت منهم «الأجارب» أي: قوم نحروا جملاً جرباً فأكلوا لحمه وغمسوا أيديهم في دمها رمزاً لعقد التحالف بينهم، وأيضاً عقدوا التحالف عند نا ويدفّون

العطر كعطر منشم وأشار إليه زهير في معلقته. ومنها «نار المحاش» التي ذكرها النابغة مهنئاً لوقوع التحالف بين يربوع وتميم بعد يوم «دار موضوع» فيحتج الشعر بتصريح أسامي المتحالفين خشية المغادرة فيما بعد:

جمّــع محاشــك يــا يزيــدُ فــإنّني جمّعــتُ يربوعــاً لكــم وتميمــا

(المصدر نفسه: ٣٠٤):

فأشار زهير في معلقته الشهيرة إلى ما أبرم من العهود والمواثيق، ثم جعل الله شاهداً علي كل خارج أو خائن لهذا العهد:

فمَــن مبلِــغُ الأحــلاف عنّــي رســالةً وذُبيــانَ هــل أقســمتمُ كــلّ مُقسَــمِ
فــلا تكــتُمُنَّ اللّهَ مــا في نفوســكم ليخفَــى ومهمــا يكــتُمِ اللّهَ يعلَــمِ
يــؤخَّر فيوضَــعَ في كتــابٍ فيــدَّخرَ ليــومِ حســابٍ أو يعجَّــل فينــقَمِ!

(المصدر السابق: ٣٠٥)

٣. ٢. أقوال الوصول:

وتمثّل ما ينبغي أن يقبلَ كونها ناتجة عن قول الإنطلاق، وعن الربط السببي الذي يصله به. ويمكن أن تسمّي خلاصة العلاقة الحجاجية أو النتيجة (شارودو، ٢٠٠٩: ٢٢) ونجد خلال دراستنا للأشعار الموجودة في كتاب أيام العرب عرض النتائج متضادّة مضمناً إياها الحجج التي تبررها ويعني ذلك، الحجاج الصريح لبقائهم علي فكرة إلقاء التصادم مابين أطروحتين. فإذا أدت حجج متغايرة إلى النتيجة ذاتها صريحة كانت أم ضمنية مضمرة، فإنه ترتفع من قيمة كل محجة علي الحد السواء.

٣. ٢. ١. أطروحات في مديح الأبطال:

إن الأبطال المتمردين علي الموت والطبيعة المتجهمة مجموعة كبيرة يرهقها ثقل الشعور بالمسئولية فمنهم من يجد خلاصه في الموت منتحراً. فتظل كلمات عروة مثلاً وهو يؤدي اللحظة الجرحة تماماً، تحوم حول جثمانه المعلق في الهواء وينشق نفسه فليس غصن شجرة:

عجِيبــتُ لهــم لمَ يخنقــون نفوســهم ومقــتلُهم تحــت الــوغي كــان أجــدرا

يشــدُّ الحلــيمُ منــهمُ عقــدَ حبلــهِ ألا إنمــا يــأتي الــذي كــان حــذّرا

(أبو عبيدة، ٢٠٠٣م: ٣٣٥)

وضل امرؤ القيس فقيل له: الملك الضليل. فمات ميتة بشعة: لحم جسده يتساقط، وروحه تفيض علي رأس جبل:

ولــو أنهــا نفــس تمــوت ســويةً ولكنــها نفــسٌ تســاقط أنفســا

وكان المتلمس خال المهلهل مثلاً من أشهر من يرتل الأصنام ما قبل الإسلام كما يصرح ابوعبيدة وهي أدعية وتعاويذ تبدينا قداسة الشعر آنذاك فعمدوا قبل أداءها إلى تنظيف أجسامهم وتوضئوا. غير أنه كانت أم المتلمس زنجية سوداء فأشار إلى سعاية خصومه عند الملك علي دنائة نسبه. غير أنه كان يلقي تكريماً بالغاً عند الجماهير لسبب ما أنشد من التراتيل المقدسة ولسبب بسالته في ساحات الوغي أيضا. فنجد في مطلع قصيدة له رداً منه صارماً ضد هذه الهرائات حيث ينشد بقوله:

تعــيرني أمّــي رجــالٌ ولــن تــري أخــا كــرمٍ إلّــا بــأن يتكرّمــا

(المصدر نفسه: ١١٨)

فيعبر المتلمس عن سعاته بفعل التأنيث للمغايب أولاً ويجوز له جمع التكسير في لفظة «رجالٌ» فيطعنهم علي بث الدعايات ضده كأن عقولهم أحلام الخدور مثلاً. ثم يعدّ نفسه مستحقاً لتكريم الناس كونه من ذوات القريحة والبسالة معاً. فيوجه المحاجة ضدهم بالفعل المفرد للمخاطب أخيراً بأن يتلمسوا الكرامة عن طرق معروفة من دون السعاية. فيوجه الوعيد والتوبيخ ضدهم وكبيرهم الحارث بن الحلزة اليشكري في ما بعدُ أيضاً:

ومــن كــان ذا عــرض كــريمٍ فلــم يصُــن لــه حســباً كــان اللئــيمُ المــذمّما

أحــارثُ إنــا لــو تُشــاطُ دماؤنــا تــزيلنَّ حــتى لا يمــسُّ دمٌ دمــا

فيحذر الحارث بقوله هذا عن ترغيب الملك ضده واستثارة غليان غضبه فلو استمر هكذا لقد يمارس قومه ضدهم حروباً دامية فظيعة يؤدي بحياة من يعيش من سلالته المدعوّ كريمة فيجعلهم نسياً منسياً. فإن استرحام الأسري المساكين للغالبين المرتجين كراماً ومطالبتهم بانطلاق السراح وإعادة النظر في قتله فهو من المديح لهم. فيذكر عن يوم زبالة أنّه كان ينشد أحد الأسري ليلاً يخاطب أمه هاجعاً:

لـــو أنّهـــا علمَـــت فيســـكن جأشُـــها ... أنّـــي ســـقطتُ علـــي الفـــتي المِنعـــام
أن الـــــذي تـــــرجين ثُـــــم إيابَـــــه ... سُـــقط العشـــاءُ بـــه علـــي بســـطام
ســـقط العشـــاءُ بـــه علـــي متـــنعمٍ ... سَـــمح اليـــدين مُعـــاود الأقـــدامِ

(المصدر السابق: ١٧٦)

وكان يسمعه حينئذٍ «بسطام بن قيس» فقال: «والله لا يخبر أمَّك عنك غيرُك» فأطلق الأسير. ويتكرر هذا الموقف مع أمية بن حرثان بن العسكر وكان أبنه كلاب وأخوه قد خرجا مع جيوش الفتح في خلافة عمر بن الخطّاب، بعد ما كبُر الشيخُ وكفّ بصرُه. فقال حرثان مطالباً عمر أو أحد كبار الجيش أن يرجع المنتهمين به بحق كتاب الله وسنة الشيخين لأن أباه شيخ كبير فلا يقدر علي عمل لارتعاش يده وأمه فتحن إليه دوماً فينغص حلقها غماً فيعني هذل شدة أحوالهم بعد الفتح الإسلامي لاستغراق غيابهم ملياً:

لِمَـــن الشـــيخانُ قـــد نشّـــدا كلابـــا ... كتـــابَ اللهِ أن حفِـــظ الكتابـــا
إذا هتفـــت حمامـــة بطـــنِ وجٍّ ... علـــي بيضـــاتها ذاكـــراً كلابـــا
تركـــتَ أبـــاك مُرعِشـــة يـــداهُ ... وأمُّـــك ماتســـيغُ لهـــا شـــرابا

(أبو عبيدة، ٢٠٠٣م: ١٧٦ - ١٧٧)

فيتعاطف عند الخليفة عمر مزيجاً بالدعاء عليه مرة أخرى فيقول:

سأســـتعدي علـــي الفـــاروق ربّـــا ... لـــه لـــه عَمـــدُ الحجـــيج إلى بُســـاقِ
إن الفـــاروق لم يـــردد كلابـــا ... إلى شـــيخين هامُهمـــا زواقـــي

(المصدر نفسه: ٢١٣)

فسمعَه عمر، فكتب إلى أبي موسي بإشخاصه، فلم يشعُرا إلا وابنُهما يقرع عليهما الباب. فقال أبوه: إن كان كلاب في الناس حياً، إنه لهو. ويعني أنه لم يتعرف عليه لسبب زوال ذاكرته.وربما كانت ظاهرة اغتراب المستسلمين قبالة الفاتحين في أشعارهم أقلّ وضوحاً في أشعارهم لأنّ حصن الوثنية لم يكن قد انهار بعد، وأنّ صناديد القريش المهزومين في كل ساحات مازالوا يملكون الرمق، فيستمدون منه قدرة الدفاع عن قلاعهم المهزوزة، والشعراء أيضاً مازالوا يلوذون هذا الحصن فيأنسون إليه. وكأنما كان فتح مكة بمُثابة ناقوس قرعَ في

آذان الشعراء فاغتربوا روحاً وجسدا. فهذا أبو سفيان يتلمس الدخول علي النبي ﷺ مستسلماً له بعد الفتح فلم يإذن له. فحمل معه ابناً له صغيراً مسترحماً فخاطبه: والله ليأذن لي أو لآخُذَنَّ ابني هذا، ثمّ لنذهبنَّ في الأرض حتى نموت عطشاً وجوعاً. فرقّ له الرسول ﷺ وأذن له. فدخل عليه فقال محشرجاً صدرُه:

لعمــرُك إنّــي يــومَ أحمِــلُ رايــة ... لتغلــبُ خيــلُ الــلات خيــلَ محمــد

لكالمــدلجِ الحــيران أظلــمَ ليلُــه ... بعيــداً أرجــي حــين أهــدي وأهتــدي

هــدانيَ هــادٍ غــيرُ نفســي وقــادني ... إلى اللهِ مــن طــرّدتُ كــلَّ مطــرّد

(المصدر السابق: ٢١٦)

فيشير معتذراً إلى لمعان فكرة الإنتصار في باله مخولاً أمره علي الأصنام بداية. فبعد ما يلاقيه من الهزيمة وانهيار الأصنام في الكعبة فتردد في صواب ما كان قد يظنه. فيقول إن ما نجّاني من الحيرة كان الإيمان بفكرة غير فكرتي من جديد، دون أن يشير إلى المؤثرات المادية كعدد الجنود وسلاحهم. فيدعو بذلك الرسول ﷺ إلى نبذ الحقود الغابرة لأنه لقد تطور إلى شخص آخر كلياً. فإنه مازال يعاقب النبي ليهديه إلى الصواب والرَّشد هذه المرة بخلاف زمن يبغيه قتلاً وفتكاً عليه.

وأبرز مثل لرئيس مقدس قتل يوم «ذات الأثل» هو صخر بن عمرو بن الشريد، الذي يلوح وجهه من بين القصائد الغر التي أنشدته أختها الخنساء ولم تكن لتبكي في صخر صفات البشر الفانين، فتظن أخاها خالدة للأبد لعدم موافقة ظروف ميته وغيره. أو هي بالأجدر متسائلة أني يكون غيرك وأنت يا صخر بمنزلة الموتي رغم أن صروف الدهر ليس سويا؟ فترثيه قائلة:

لابــد مــن ميتــة في صــرفها غِــيرٌ ... والــدهر في صــرفه حــولٌ وأطــوارُ

(أبو عبيدة، ٢٠٠٣م: ٢٨٩)

وكان صخر أيضاً وعدها في حياته أنه مقيم معها موجوداً، حتى ولو نقله الموت وحجبه عن الأنظار، بالرغم من مظنة بعض الناس غيره بخلودهم مخطئين فلا يتحظون بهذه الميزة. فيكفيها مشاهدة جبل عسيب إذا افتقدته حنيناً وهو مضجعه للأبد:

أجارتَنـــا إنّ الحتـــوفَ تنـــوبُ علـي النـاس كـلَّ المخطـئين تُصـيبُ

أجارتَنـــا إن تســـأليني فـــإنّني مقـيمٌ لعمـري مـا أقـام عسـيبُ

(المصدر نفسه: ٢٩١)

وقضية الخلود عن طريق جهاد النفس في الحرب و باعتبار أنّ «الذكر للإنسان عمرٌ ثان» هي نفس قضية الخلود في الملاحم العريقة لكنها متطورة فلا يبغي البطل هنا العثور علي نبت أو ينبوع خاص كالجلجامش مثلاً، وبل يبلي حسناً في الحرب ونوال الثار لينال الخلود كقوله المهلهل مثلاً حيث يمثل الخلود في إدراك الثأر فقط:

فقـــتلاً بتقتيـــلٍ وعقـــراً بعقـــرِكم جـــزاء العطـــاء لايـــؤتَ مـــن أثـــار

(المصدر السابق: ٢٩٦)

فإن اقتحام الموت بدوره لا يعدّ إلّا معالجة جادة لمسألة الخلود وحسن الصيت عبر البسالة أو الكرم، كمشلة تشغل النفس الإنسانية منذ تباشيرها فماذا يأتي بعد الموت؟ فنجد إلى جانبها ظاهرة المعمرين في الأيام أيضاً كما يقال في الربيعة بن الضبيع الفزازي - أحد المناهضين بالصلح في أيام داحس - وقد عاش أربعين وثلاثمائة سنة وفق الأساطير، فأنشد» ركداً علي صواب قوله وصحة شعوره مع هوان جسمه وقد بلغ مائتي سنة وأربعين قائلاً:

هـــا أنـــذا آمـــلُ الخلـــودَ وقـــد أدرك عقلـــي ومولـــدي حُجـــرا

أبـا امـرئ الفـيسِ هـل سمعـتَ بـه؟ هيهـــات هيهـــات، طـــال ذا عُمـــرا

أصـــبحتُ لا أحمِـــلُ الســـلاح ولا أملِـــك رأس الـــبعير إن نفـــرا

والـــذئبَ أخشـــاهُ إن مـــررتُ بـــه وحـــدي وأخشـــي الريـــاح والمطـــرا

(أبو عبيدة، ٢٠٠٣م: ٣٤٢)

وبعد فإنهم إذا لم يدركوا بدم المقتول بأن ينالوا من دم قاتله، فظل قوم القتيل رجالاً ونساءاً حلائل للقاتل، فقال ابن علاقة أخو بني حارث بن همّام مرة يعير الـ ذي الجدين، تركهم قيس بن مسعود رهينة في يد كسري حتى مات وتزويجهم امرأته في حياته. وأن يقتل عاصم بن خليفة بسطاماً أخا مسعود ولم يثأروا به:

أقـــيسَ بـــن مســـعودٍ رهنـــتم بأكلـــةٍ مـــن التمـــر لم تشـبِع بطـون الجراضـم

يـــوأنتم نكحـــتم عرسَـــه في حياتـــه فكانـــت عليـــك بعـــد ضـــربة لازمِ
فخـــرتم ببســـطامٍ ولم تثـــأروا بـــه أحـــارِ بـــنَ همّـــامٍ خلائـــلَ عاصـــمِ!

(المصدر نفسه: ٢٩٧)

فيعيرهم بأنهم لم يدركوا بدم بسطام، وجعلهم حلائل لقاتله. فلذلك أولموا بالنحر والعقر واختلطت كشعيرة مع الكرم، فلذلك يقرنُ الكرم بكثرة النحر مباراةً منهم في الجود والسخاء. ويحذر الشاعر في موضع غيره أن الحرب ستحرّم القوم من خيرتهم وكرامهم فإن ذكري البسالة لا يتبع عنه الخلود بخلاف الكرم والفتوة ففي انتصار الحرب أيضاً خسارة ومضرة لأصحابه:

تعلّـــم أن خـــير النـــاس طـــرّاً قتيـــلٌ بـــين أحجـــار الكـــلابِ
تـــداعت حولـــه جشـــم بـــنُ بكـــرٍ أســـلمَه جعاســـيس الربـــابِ
قتيـــل مـــا قتيلـــك يـــا ابـــن ســـلمي! تضـــرّ بـــه قتيلـــك أو تحـــابي

(المصدر السابق: ٣٢٨)

فالشجاعة العربية كشجاعة قدامي الإغريق معتمدة علي الإثارة ومتلاشية بسرعة أمام القنوط والإبطاء. فالبطل العربي متحد فخور فلو لم يلق منقذاً سوي الهروب أمام نفسه، فلا يستحق اللؤم أبداً لإذاعة صيته بطلاً من قبل كما يصفه عمرو بن معديكرب:

أجاعلـــة أم الثـــوير خزايـــةً علـــي فـــراري أن لقيـــتُ بـــني عـــبسِ؟
ولـــيس يعيـــب المـــرءَ مـــن جـــبن يومـــهِ إذا عُرفـــت منـــه الشـــجاعة بـــالأمسِ

(أبو عبيدة، ٢٠٠٣م: ٣٣٩)

ويستخدم عامر بن الطفيل نفس التبرير يوم «فيف الريح» بعد ليلة بات عند الجن قائلاً:

فبتنـــا ومـــن يـــنزل بـــه مثـــل ضـــيفنا يبُـــت عـــن قـــري أضـــيافِه غـــيرَ غافـــلِ
أعـــاذلُ لـــو كـــان البـــدادُ لقوتلـــوا ولكـــن أتانـــا كـــلّ جـــنٍّ وخابـــلِ

(المصدر نفسه: ٣٣٩)

ويروي أبوعبيدة حكاية رهان فسي سنان للأسود مقابل دفع الدية أحد الأيام، فعرض ودفع إليه سنان ثلاثمائة من ألف بعير كما وعده له دية الملوك فمات. فضمن الباقي أخوه

سيار بعد هذا الرهان فمن الواضح أن ثمن قسي واحد لا يبلغ ألف بعير أو جزء منه أبدا غير أنه يغالي للفرسان قيمة ذاتياً بغض النظر عن ثمنه بحسب النقود:

ونحــن رهنّــا القــوس ثمّــت فودّيــت	بــألفٍ علــي ظهــر الفــزاريّ أقرعــا
بعشــرَ مــئينٍ للملــوك ســعي بهــا	ليــوفيَ ســيار بــن عمــرو فأســرعا
رميناــــاه صــــفاع بــــالمئين فأصــــبحت	ثنايــاه للســاعين في المجــد مهيمــا

(المصدر السابق: ٥٢١)

٣. ٢. ٢. أطروحات في الرجوع إلى العصور الغابرة وذكر الأمجاد الماضية:

يروي أبو عبيدة أنه بعد فتح مكة علي يد الرسل ﷺ فالوثنيون من الشعراء الذين لا يعد يجدون ملاذاً ولا حصناً يعتصم فيه من طوفان الفكر الجديد فيقلل من هذا الثقل الرهيب من الشعور بالعتمة والضياع و«أزمة الهوية» فسرعان ما ينزلق لسانُهم فيعود إلى حسه القديم. ومنهم كان حساناً فلم تنصقل ملكته بما يلائم هذا العهد وبالرغم ما ألقي من التكريم والتشجيع عند الرسول ﷺ بعد زمن قصير، علي غرار قوم مرتدين عن الإسلام بعثهم - نفياً - جبلة بن الأيهم في عهد عمر إلى حدود الشام من أطراف الروم، فانتصروا الروم طبعاً. فنجد حساناً يمتدح بشعره أرباب نعمته القدامى وأولياده في الجاهلية وأنه كان يعيش في ظل دولة إسلامية أصبحت لها فتوح مستمرة. فها هو حسان ينشد القوميات ليلقي موحياً ضرورة التخلي عن الأواصر الدينية فالرجوع إلى الأواصر القومية:

إنّ ابــن جفنــةَ مــن بقيــة معشــرٍ	لميغــــذِهم آبــــاؤهم بــــاللوَّمِ
لم ينسَــني بالشــامِ إذ هــو ربُّهــا	كلّــــآ ولا منتصــــراً بــــالرومِ
يعطــي الجزيــلَ ولايــراه عنــدَهُ	إلّــا كــبعضِ عطيــةِ المــذمومِ
وأتيتُــهُ يومــاً فقــرّب مجلســي	وســقَي فــرواني مــن الخرطــومِ

(أبو عبيدة، ٢٠٠٣م: ٢١٤ - ٢١٦)

فيصف شيخ بني جفنة بأنه طيب المعاش الذي أكرم مثوي حسانٍ ولم يخذله منكوباً عندما زاره بالشام مشرداً. وأنه لم يخُن أهل الشام بنصره للعدي الروم أبداً بخلاف التداعيات السارية. فإنه رجل كريم يسقي ضيفه ماء صافياً. وهو معطاة لكل الناس إلا من

لا يليق منه النوال نزراً ولسبب خاص فقط. ومع أن الكرم والإستضافة تعد من أغلي القيم البشرية من دون ريب وهي المقتفاة عند العرب طراً، غير أن حساناً يقصد إثارة النعرات الطائفية بتخصيص سيد قوم خاص - أي بني جفنة - وتفضيل هذا القوم علي الأخرين ويبث سجايا شيخ لهم فقط، فلايخفي إبطال محجته هكذا علي أحد أبدا. فيروي أبو عبيدة من بعده أنّ أباذؤيب الهذلي والك بن الريب من المخضرمين كانا ممن يرافقون جيوش الفتح إلى خراسان فيقعان في اغتراب نفسي مضيض. ثم يقدّم ما أنشده مالك وهو يعاني الغربة علي طراز الشعر الجاهلي الذي يبكي علي الدمن الخالية المستوحشة بدون أي دوافع عنصرية وقومية. فيسمي البلدان الواقعة عالي مسار الطريق وهي المُنيفة ومدفع وقردة. فتوحيه الرحلة الحربية الشعور بالغبن والخذلان:

أما تري الدار قفراً لا أنيسَ به	إلا الوحوشَ وأمسي أهله احتملا
بين المُنيفة حيثُ استنّ مدفعُها	وبينَ قردةَ من وحشيها قبلا
وقد تقولُ وماتخفي لجارتها	إني أري مالك بن الريب قد نحلا
من يشهد الحربَ، يصلاها ويسعرها	تراه مماكستَه شاحباً وجلا

(المصدر نفسه: ٢١٥)

ومنه قوله مشيراً إلى أرض خراسان وعدم رغبته للغنائم حال كونه باقياً بعد الحرب ولو أصابته المسكنة:

إن اللّهُ يرجِعني من الغزو لاأُري	وإن قلّ مالي، طالباً ما ورائيا
لعمري لئن غالت خراسانُ هامتي	لقد كنت عن بأي خراسانَ نائيا

(المصدر السابق: ٢١٧)

فيحسب هنا الرحلة بغياً وقهراً واعتداء بلا سبب صواب فلم يعتد عليهم أهل خراسان بعد ولم يطالبهم هذه المداخلة أحد خلاصاً عن عسف الحكم وجوره وقضاء عليه انكباحاً. وأما إذا قُتل فيشكو الفراق عن موطنه فقط. فيعترف بالخذلان التام في كلا الحالتين.

وكان الزبرقان بن بدر المدعو «قمر نجد» يرفع له رفرف متحلية بالعمائم والثياب لجمع بني تميم حوله وشاهدنا آنفاً رغبتهم في الجمع حول الجمل المجلل وسط الحرب! فقال

الزبرقان منوهاً بكرامة مثوا المجيرين عندهم منتمياً إلى كرامة نسبهم الملوكي ليحث جيش العدي علي السلام وقبول البيعة:

نحن الكرام، فلا حيّ يعادلنا ... منّا الملوك وفينا تنصبُ البيعُ

(أبو عبيدة، ٢٠٠٣م: ٢٩٢)

٣. ٣. أقوال العبور:

وهي عبارة عما يبرر الصلة السببية بين قول الإنطلاق وقول الوصول ويمثل اعتقاد الفاعل المحاج حول الطريقة التي بينها علي المستوي التجربية والحسية أو المعرفية فيسمي هذا، الدليل أو الحجة بنفسها مصرحة كانت أم مضمرة، فتحترز علي أهمية بالغة في الخطاب الحجاجي وإلقاء التأثير علي ذهن المخاطب. فيشترط فيه الغرافي (٢٠٢٢: ٤٨) الأخذ في الإعتبار كلّ ما يتوقّعُ من التشكيك أو مجالات للنقاش مما يساند علي جامعية جوانب المحجة. فليلجأ الفاعل المحاج لحشد مجموعة من الحجج التي تروم نتيجة واحدة نهائية فلتوافق النتيجة جميع المحتملات المعروضة آنفاً. فقد تتحظى بصبغة واقعية عند وصفها للتفاصيل.

٣. ٣. ١. أطروحات في تبرير وقوع الحرب أحياناً وضرورة التأهب لوقوعها:

يتأتى أبو عبيدة بحكاية منسوبة إلى شخص اسمه «أعصُر بن سعد» المسمي تلواً للأبيات التالية وهي من أغني المحاجات بينه وبين ابنة له المدعوة «عميرة» حول دافعه لتخضيب المشيب تجنباً للهوان قبالة صفوف العدي وقد توغل في كبر سنه. وتصدر روعة قوله من حيث أنه توقع باندلاع الحرب وضرورة المشاركة فيها لمصلحة قومه ريثما اعتمر آنذاك؛ ثم أن خبرته من صروف الدهر تمانعه إثارة القلق بلا سبب في ثياب طفلة بريئة. فيعتمد إلى أسلوب الحكيم في الحقيقة تبريراً لما استنكر الطفلة فردّ عليها أنه يواكب صروف الدهر فقط دون أن يشير إلى اندلاع الحرب صراحة كأحد صروف الدهر

قالت عمَيرةُ ما لرأسك؟ بعدما ... نفدُ الشبابِ أتي بلون منكر

أعميرُ إنّ أباك شيب رأسه ... مرُّ الليالي واختلافُ الأعصُرِ

(المصدر نفسه: ١٢٧)

وبعد فإن رثاء الشاعر علي فراشة نفسه وهو يلقي مصرعه خلال معركة خيالية أسلوب

يقتفيه بعض الشراء أحياناً للحث علي ثقة المرء علي مقدراته وموهوباته فقط، فيصور الشعر نفسه آنذاك وحيداً ولا يواسيه أحد سوي سلاحه المقطرة منه دم العدي بحيث يبدو باكياً وحصانه الأشقر - احياناً - الذي ينتقي لونه وفقاً للدم ولم يبق أحد يراعيه بعد. فيخلق مشهداً تقابلياً بين الحياة والعدم المؤبد ومن ذلك قول مالك بن الريب وهو من فحول الشعر العربي ومن الفرسان البسّل أيضاً:

تذكرتُ من يبكي عليّ فلم أجد ... سوي السيف والرمح الرُّدَيني باكيا

وأشقرَ خنذيدٍ يجرّ عنانَه ... إلى الماء لم يترك له الدهر ساقيا

(المصدر السابق: ١٧٣)

وكما يذكر علقمة بن سهل حاله بعد الموت فيقول مشيراً إلى عدم موافاته الأموال التي لن يمتك بها أبداً لنهب الوريث عليه فإلي ضرورة اكتساب الأمجاد والخلود في الأذهان مادام حياً:

فلن يعدِمَ الباقون قبراً لجثتي ... ولن يعدمَ الميراثُ منّي الموالیا

حراصٌ علي ما كنت أجمعُ قبلَهم ... هنيئاً لهم جمعي وماكنتُ واليا

(أبو عبيدة، ٢٠٠٣م: ١٧٥)

فيروي أبوعبيدة في عدة مواضع من كتابه اتجاهات سلبية أسداها الشعر تجاه الخمر للمقاتلين والفرسان لما فيها من فساد الشعور وزوال العقل. فيشير إلى مذمة «أبي محجن» لها وهو شاعر من بلد ثقيف مدينة الخمرة والكروم الجميلة، ولا يتنازل عن اعتقاده ببعض فوائدها:

رأيتُ الخمرَ صالحةً وفيها ... مناقبُ تهلك الرجلَ الحليما

فلا والله أشربها حياتي ... ولا أشفي بها أبداً سقيما

(المصدر نفسه: ٢٢١)

فنجد في موضع آخر من كتابه يشير إلى حكاية من شعر «عبد يغوث» في يوم كلاب الثاني فيحاول تبرير ذمته عن لؤم يعتريه لسبب مباشرة فتية اسنها «سبأ» في حانوتها وكان لا يماسك نفسه للتوغل في انتشاء التشراب بعدما أوصدت عليه باب الحان، فما كان يقدر

ركوب الخيل سوياً، حتى بعد مغادرة حانها. فينشد قائلاً وهو يحذر الفرسان عن اللؤم والعار معاً:

كأني لم أركب جواداً ولم أقِل ... لخيلي كري نفسي عن رجاليا

ولم أسبأ الزق الروي ولم أقِل ... لأيسار صدقٍ أعظموا ضوء ناريا

(المصدر السابق: ١٥٦)

فيروي كتاب أبي عبيدة قصصاً لما يتوقع وقوعها في الحرب دوماً فلاينحسر عليها. وهي لأفراد قَتلوا من أحسن إليهم وربّاهم أيتاماً لترابطهم هؤلاء الأشخاص بمن كانوا يظنونهم مسئولين عن قتل الأحبة الأخرين الذين يخالونهم أغارب عند البداية كما وقع للهجرس يوم البسوس عندما قام بقتل خاله جساس - قاتل أبيه كليب - مع أن جساساً هو الذي رباه. وكذلك ما وقع لناشرة يوم البسوس أيضاً عندما قتل هماماً، مع أنّ هو الذي رباه؛ فقال باكي همام

لقد عيل الأقوامَ طعنةُ ناشره ... أ ناشرَ لازالت يعينك آشره

(أبو عبيدة، ٢٠٠٣م: ٣٠٠)

ومن قتل الأقرباء في ساحة الحرب ولابد منه فيشير إلى رثاء جليلة أخت جساس وهمام من بكر وزوجة كليب من تغلب أيام البسوس التي اندلعت حسب ظاهرها لسبب ناقة فقط، والحقيقة أنّهم أبناء عمومة يسكنون أرضاً واحدة عقد بينهم انصهار بواسطة جليلة أيضاً فالنقمة ودرك ثأر كليب لا يشتفي الحرقة الباكية طبعاً لأنها تؤدي إلى فقد قومه من أبويها إضافة إلى موت زوجها وثكلها من جديد:

خصني قتلُ كليب بلظي ... من ورائي ولظي مستقبلي

يشتفي المُدرك بالثأر ويفِ ... دركي ثأري ثكلُ المثتكلِ

إنّني قاتلة مقتولةٌ ... ولعلّ اللّهُ أن يرتاحَ لي

(المصدر نفسه: ٣٢٠ - ٣٢١)

ويشكو عنترة أيضاً من هذه المعارك التي يقتتل فيها الإخوة ويذكر كيف حالت رماح القوم بينه وبين حبيبته بحرب ابني بغيض:

حالــت رمــاحُ ابــني بغــيض دونكــم وزوت جـوانـي الحـرب مـن لم يجـرمِ

(المصدر السابق: ٣٢٢)

ويسترحم لأخيه سمير في أثناء إحدي الحروب فيدعو الخصوم إلى الحلف والسلام بدلا من تخويف الضعاف:

يــاقومُ لاتقتلــوا سمــيراً فــإنّ الــ ـــقتل فيـــه البـــوارُ والأســـفُ

إن تقتلـــوه تـــرُنّ نســـوتكم عللـــيٌّ كـــريمٍ ويفـــزع الســـلفُ

إنّــي لعمــرُ الــذي يحُــجُّ لــه النــاسُ .مـــن دون بيتـــه ســـرفُ

يكـــينُ بـــرٍّ بـــالله مجتهـــدٍ يحلِـــفُ إن كـــان ينفـــعُ الحلـــفُ

(أبو عبيدة، ٢٠٠٣م: ٣٢٣)

وأما يوم البردان وتنويه المؤلف باحتمالية فتك وثائق التودد والفتوة بين الأحبة فارتكاب أبشع مجازر يستحيي ذكرها إثر الحروب (المصدر نفسه: ٣٩١ - ٣٩٦) فإذا أغار أثناءها زياد بن الهبولة القضاعي أحد ملوك ربيعة، علي ذي كندة مملكة حجر والد امرء القيس، فأخذ مالاً كثيراً وسبي هند ابنة ظالم امرأة حجر ونسوة أخرى غيرها. فكان ابن الهبولة ساق وجنوده بالغنيمة والأسري، فواجه طيلة دربه حجراً بنفسه فصار كيت وكيت، فسارع حجر علي معسكر زياد فانبث بهم فأخذه أسيراً سدوس صحبُ له. فقتل الأسير علي يد عمرو بن ربيعة تحسداً منه فتخاكم هو وسدوس إلى حجر ودعواهما دفع عمرو لدية الأسير وهو بيد سدوس. فيوعد سدوس بني شيبان المدعو دماثاً لئاماً يوعدهم بالدمار ومغادرة علي تلك المجرمة الفظة. ويحتج أنّ هذه الفظاظة هي خطة غبن لمن يرتكب الجريمة علي الأسير المخلوع ويستحق لنفسه العار بقوله:

مـــا بعـــدُكم عـــيشٌ ولا معكـــم عـــيشٌ لـــذي أنـــفٍ ولا حسَـــبِ

لـــولا بنـــو ذُهَـــلٍ وجمـــعُ بـــني قـــيس وماجمعـــت مـــن نشـــب

مـــا سمتمـــوني خطّـــةً غبنـــاً وعلـــي ضـــربةٍ رمـــتم غلـــبي

(المصدر نفسه: ٣٩٤)

ثم قتل حجر زوجه هنداً بصورة بشعة أيضاً ومن خلال ربطها بين فرسين، ثم ركضا بهما حتى قطعاها، رامياً فك العار عن ذمته لسباية زوجها ومسها عند العدي، فأخذ يرثيها

حالياً واصفاً إياها بحسن المنظر والمعشر. فيعاهد نفسه عدم الزواج بعدها بأي امرأة أخرى كون الحب فيها خيتعوراً أي مذبذباً وهي مدفونة فوق جبل يدعي جفيراً فتلومه الجارية الهندية أيضاً علي هذه المجرمة:

لمن النار أوقدت بجفير ... لم تنم عند مصطلٍ مقرور

أوقدتها إحدي الهنود وقالت ... أنت ذا موثقٍ وثاقَ الأسير

إنّ من غرّهُ النساءُ بشيئ ... بعد هندٍ لجاهلٌ مغرور

حلوة العين والحديث ومرّ ... كلّ شيئ أجنَّ فيه الضميرُ

كلّ أنثي وإن بدا لك منها ... آية الحبّ، حبُّها خيتعورُ

(المصدر السابق: ٣٩٦)

وفي نفس الإطار، فيشير إلى ما أنشده أبوعدي النمري عن يوم القنان وسباية الخدور كإحدى تداعيات كلّ حرب لا يتجنب خذلانها والإزدراء بها أبداً فلا يولم أحدُ في ساحة الوغي أبدا!

منعنا لكم يوم القنان نسائكم ... وقد كدن لا يمنعن ساقاً ومئزراً

(أبو عبيدة، ٢٠٠٣م: ٣١١)

فعلي ما أشير إلى بعض ما يرواه الكاتب من مجازر الحرب ومفاسدها، فنجده يروي عمن سلمة يوم كلاب الأول أن من القوم من يناصح الطرفين مبرماً ويحثهما علي مزاولة الحلم والسلام بديلاً من الفتك والدمار داخل العشيرة كالضواري مثلاً:

إنّي عليّ أستتبُّ لومكما ... ولو تلوما عمراً ولا عُصما

كلّا، يمينُ الله يجمعنا ... شيئٌ وأخوالنا بني جُشما

حتى تزور السباع ملحمةً ... كأنّها من ثمودٍ أو إرما

(المصدر نفسه: ٤٠٠)

ومما تمهد للحرب دوماً هو الإغارة علي أراضي الخصم أو اقتحام معابده بلا مبرر هواناً عليه فقط، إلحاقاً للأذي وتحريضاً عليه ليدخل الحرب ويقضوا عليه شرعياً. فيروي

الكتاب يوم الكلاب الأول حيث يعلو الشر بين الملكين: عمرو بن خارث في بني تغلب من جانب، وأخوه شرحبيل في نواح أخرى فبعث شرحبيل عدة من أشقياء التميم ليغيروا علي أفراس سائبة بلا سبب. فأنشد رادع من ذهل كذا:

لاتأخُـــذَن أفـــراس تغلـــب إنّهـــا ... يـــا ابـــن العقيلـــة شـــوب سُـــمّ نـــاقعُ

والشـــرّ مبـــؤه الصـــغير، وهـــذه ... فيهـــا مهالـــك نهشـــلٍ ومجاشـــع

(المصدر السابق: ٤٠٣)

٤. العملية الحجاجية وكيفية استخدامها في شواهد أبي عبيدة:

يري ديكرومعنيين للحجاج: المعني العادي والمعني الفني. والعادي هو طريق عرض الحجج وتقديمها بهدف التأثير في السامع كما سبق، والمعني الفني للحجاج فيدل علي عملية من العلاقات المؤدية في الخطاب المدرجة فيه (الحباشة، ٢٠٠٨: ٢١). فهي عبارة عن عمل التصريح بالمحجة من ناحية، ثم الإستنتاج من ناحية أخرى مصرحاً بها أم مفهوماً منها. والعلاقة التي تربط بين المحجة والنتيجة عهي علاقة حجاجية فقط وليست الإستلزام المنطقي لزوماً. فالحجة عند العزاوي (٢٠٠٦: ١٨) وهو مترجم بعض أبحاث ديكرو، منقسم إلى الأقوال من ناحية والمشاهد الطبيعية أو سلوك غير الفظي أثناء النص وفقراتها من ناحية أخرى. فلاينحصر ساحتها في الخطاب أو النص أو كل كلام ملفوظ فقط، وبل يوسعه إلى كل ما كان له طاقة حجاجية وما له دور في إنجاز غاية الحجاج وهي الإقناع والتأثير بأي طريق.

فيحالفه وديكرو من أمثال عبدالله صولة (٢٠٠٧: ٥١) في كون الوظيفة الوحيدة للحجاج هو التوجيه وفي أن اللغة بكل وحداتها ذات طاقة حجاجية وإنما اقترح آليات حجاجية قريباً جداً من نظرية ديكروحيث يبحث صولة عن بلاغة الحجاج في المفردات والتراكيب والصور، فقام بتوسيع نظرية ديكرو في الحقيقة مؤكداً علي دور التكرار والدوران في الدلالة الحجاجية أيضاً.

أما رولان بارث فنراه في بلاغة الحجاج كأنه ألبس الخطابة القديمة ثوباً جديداً وصبغها بمصطلحات حديثة. فالحجاج عنده ذو أربعة أركان هي: الإستهلال والسرو والإثبات

والخاتمة (العشماوي، ١٩٩٤: ٧٠ - ٧٦). فيجري السرد والإثبات في مجال برهاني، والإستهلال والخاتمة في مجال عاطفي. فيعرف الإستهلال بأنه استمالة المتلقين، والسرد هو تقديم حجاجي وتوزيع الأدلة في الأحداث والأوصاف، والإثبات هو عرض الحجج للبدء بالأدلة القوية واتباعها بالضعيفة فالإنتهاء بالقوية منها من جديد، فيري الخاتمة في مستوي التلخيص الممثل للأحاسيس المثيرة.

أما السلم الحجاجي عند ديكرو والعزاوي (٢٠٠٦: ٢١) فيمثل العلاقات الحجاجية موجهة مترتبة وميزته هو أن كل قول يردّ في درجة ما من السلم، فالأقوي دليلاً هو الذي يعلوه بلا عكس له. وقبول الحجاج الأول يستلزم قبول الحجاج الثاني كما يلي:

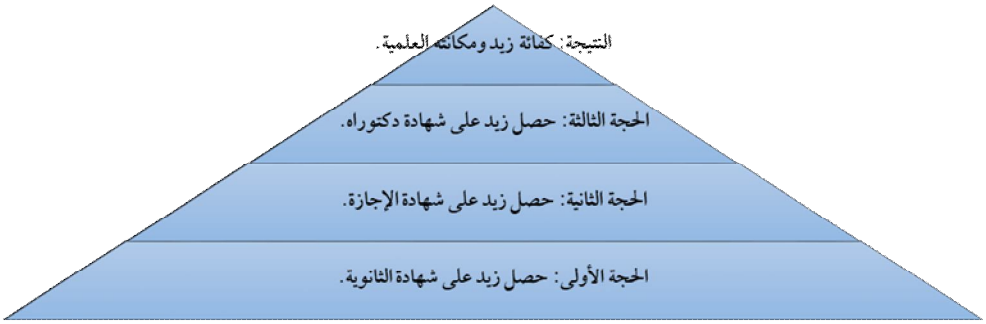

فإن مجال المحجات في هذا السلم أوسع من الأطر المنطقية أو شبهها بخلاف ما يبدو ذي البدء. ولعلّ السبب راجع إلى الحجر الأساس لرأي ديكرو، وهو كون الحجاج كامناً في اللغة وكيفية توظيفها مر العصور. فالعلاقات الحجاجية في هذا السلم راجعة إلى حروف وأدوات العطف والحصر والتأكيد طبعاً.

ويستند أبو عبيدة إلى محجات خالد بن جعفر بعض الأيام حيث يبدي تأهبه لاندلاع الحرب متكئاً علي بسالة فرسه المدعوة حذفة التي يحبها كما يحب ابنه جزءاً عند أصعب الظروف ومنها شدة البرد والمجاعة فلا يجود الكلأ الطريء لتقتات بها في الرباط ليلاً فإنها ماتزال وفية لأنها استحلبت عند سخولتها من كل النوق الخلية التي فارقت ولدها سريعاً والصعود التي تعطف علي ولدها باللبن المبكر فلا يخافون أبداً، وبل يزاولون الوغي ويشاهدون تطوق فرسه الوفية عند الشدائد بالعدي المنهزمين آنذاك، كما استدار السوار الجيد المصنوع من العاج الطريء حول المعصم. فيصفها وكرّها بمحجته شبه المنطقية فليس

من المحتوم انتصارهم في كل الحروب وإن أثبتت بسالتهم ووفاءهم فقط (أبو عبيدة، ٢٠٠٣م: ٤٧٢):

أديـــروني إدارتكـــم فـــإنّي ... وحذفة كالشجا تحت الوريد

مقربـــةً أســـويها بجـــزء ... وألحفهـــا ردائـــي في جليـــدِ

وأوصـــي الـــراغبَينِ ليؤثراهـــا ... لهـــا لـــبن الخليـــة والصـــعود

تراهـــا في الغُـــزاةِ وهـــنّ شـــعثٌ ... كقلب العاج في الرسخ الجديد

يبيـــت رباطهـــا بالليـــل كفّـــي ... علي عود الحشيش وغير عودِ

وقال خالد بن جعفر في موقف آخر يمنّ علي هوازن بقتله اعدو المدو زهيراً مما أدي إلى أمنهم من الخوف وامتلاكهم علي غنائم ملوكية يجعلونها مهراً لبناتهم وفدية لقتلاهم، فاتساع عقاراتهم المتصرفة فيلومهم لسبب خذلانها له (المصدر نفسه: ٤٨٣):

وقتلـــتُ ربّهـــمُ زهـــيراً بعـــد مـــا ... جـــدع الأنـــوف وأكثـــر الأوتـــارا

وجعلـــت مهـــر بنـــاتهم وديـــاتهم ... عقـــل الملـــوك هجائنـــاً وبُكـــارا

وجعلـــت حـــزن بلادهـــم وجبـــالهم ... أرضـــاً فضـــاء ســـهلة وعُشـــارا

وبعد فيشير أبو عبيدة إلى تضجر الشاعر من أبناء ديرته ويصفهم غير مبالين بطقوس أهل الحضر كونهم من سكان البوادي اصلاً فيطعنهم بأنهم يأتون من بطون الغابات فهم لايشعرون (المصدر السابق: ٥٣١):

ألا لستمُ منّا ولا نحن منكمٍ برئنا إليكم من لؤي بن غالب

غدونا علي نشز الحجاز وأنتمُ بمنشعب البطحاء بين الأخاشب

وبعد فيشير أبو عبيدة إلى قول لبيد حيث يذكر أيام قومه (أبو عبيدة، ٢٠٠٣م: ٥٥٤) مما يعدّ مواقف بسالته في ساحة الوغي حيث نجد دور الجمل الحالية في تمثيل البنية الحجاجية اللغوية، كونها تصور الظروف الصعبة:

إني امرؤ منعت أرومة عامرٍ ضيمي وقد حنقت علي خصومُ

وغداة قاع القريتين أتاهمُ دهواً يلوح خلالها التسويمُ

بكتائبٍ رُجحٍ تعودُ كبشُها نطح الكباشي كأنّهن نجومُ

ومنها ما نجد في وصف البسالة والفتوة معاً عند الشاعر وقومه، حيث يدعي مجاراة الأوفياء من المعتدين بعد التغلب عليهم بقوله (المصدر نفسه: ٥٣٥) حيث نجد دور الجمل الحالية في وصف شدة عداوة الأقرباء ضدهم:

قـــد هممنـــا بقتلـــه إذ برزنـــا ... ولقينـــاه ذا ســـلاح كميـــا

غـــير مـــا نـــائمٍ تعلّـــل بـــالحلم ... معـــداً بكفّـــه مشـــرقيا

فمننّـــا عليـــه بعـــد علـــوٍّ ... بوفـــاءٍ وكنـــتُ قِـــدماً وفيـــا

الخاتمة والنتائج:

بعد التطواف الذي قمنا في كتاب أيام العرب للبحث عن الإجابة لأسئلة البحث في الكشف عن مواصفات الخطاب الحجاجي، فقد تم الحصول علي عدة نتائج منها :

- تتصدي أقوال الإنطلاق بكيفية سرد المقدمة. فتعتمد هيكلة المقدمة علي جنس خاص من الأفعال الكلامية كالتوجيهات الداعمة لتنامي الخطاب واستثارة الآخر فتمهيد غلبة الفاعل منذ البداية. فتعمد الهيكلة أيضاً علي جنس خاص من مواد الأفضل كالقيم المتفقة حولها الفاعل المحاجج والفاعل الهدف.
- فيجري استخدم كتاب أبوعبيدة ورواياتها للأفعال الكلامية ليغطي عدة مواضيع كإثارة المخاطب عاطفياً، كاستخدام ألفاظ دالة علي شدة الخوف مثل «ساروا

إلينا» و «أبي القلب» و «فماأنذروا» ضرورة لمجارات الفضاء وترسيمها للمخاطب بشكل واضح.

- ومن أهم القيم المشتركة التي أشار إليها الكتاب فهي: التشدد في الدين عند الجاهليين، ومزاولة الحرب في أي ظروف ولو أصعبها، وقئسية بعض الأمور إليهم كالنوق والطلول والأودية والأصنام والنجوم وما إليها. فيشير إلى جانب من طقوسهم كطوافهم حول رموزهم المقدسة كالجمل أو الشيخ الكهل في ساحة الحرب واعتقادهم الأسطوري بشناعة قتل اللوك فحطمه عند مواجهتهم الأكاسرة الفرس. فيستخدمها الشعراء في طليعة محجتهم ليماشيهم المخاطب منذ البداية.
- وأما أقوال الوصول فتمثّل ما ينبغي أن يقبلَ كونها ناتجة عن قول الإنطلاق، وعن الربط السببي الذي يصله به. ويمكن أن تسمّي خلاصة العلاقة الحجاجية أو النتيجة رامياً إلى إقناع المخاطب صريحةً أم ضمنيةً. فيقدم أبوعبيدة في هذا المجال عدة أطروحات منها في مديح الأبطال بسالة وقبولهم المسئولية عما يجري حولهم، وألوهية نسبهم وولادتهم، ورغبتهم في الخلود كرماً أو مجداً. ثم يذكر ما يدل علي حسن صيتهم عند المستقبلين ومضاهات أحفادهم لما قاموا به غابراً لتوطيد الأواصر القومية.
- وأما أقوال العبور، وهي عبارة عما يبرر الصلة السببية بين قول الإنطلاق وقول الوصول ويمثل اعتقاد الفاعل المحاج حول الطريقة التي بينها علي المستوي التجربية والحسية أو المعرفية فيسمي هذا، الدليل أو الحجة بنفسها. فتدل الشواهد الموجودة في الكتاب ومن هذا الصنف علي ذكر تجارب عملية لبشاعة الحرب وما يتلوها وضرورة التجنب عنها كلما ينكن رغم أنه لابد من احتمالية وقوعها.

قائمة المصادر والمراجع

- الحبّاشة، صابر (٢٠٠٨م). التداولية والحجاج: مداخل ونصوص. دمشق: صفحات للدراسة والنشر.
- شارودو، باتريك (٢٠٠٩م)، الحجاج بين النظرية والأسلوب: عن كتاب نحو المعني والمبني. ترجمة أحمد الوردني، بيروت: دار الكتب الجديد المتحدة.
- أبو عبيدة، معمر بن المثنى التميمي، (٢٠٠٣م). أيام العرب قبل الإسلام، جمع وتحقيق ودراسة: عادل جاسم البياتي، بيروت: عالم الكتب للطباعة والنشر والتوزيع.
- العزاوي، أبو بكر، (٢٠٠٦م)، اللغة والحجاج، المغرب: العمدة في الطبع.
- العشماوي، محمد زكي، (١٩٩٤م)، النابغة الذبياني، ط ٢، القاهرة: دار الشروق.
- الغرافي، محمد، (٢٠٢٢م). الحجاج في الشعر العربي القديم عند سامية الدريدي، مجلة جيل الدراسات الأدبية الفكرية، العام التاسع، العدد ٧٤، ص ٤٥.
- مشبال، محمد (٢٠٠٧م). في بلاغة الحجاج: نحو مقاربة بلاغية حجاجية لتحليل الخطابات، دار كنوز المعرفة، عمان.
- النقوي، السيد حامد، (١٤٠٤ه). خلاصة عبقات الأنوار في إمامة الأئمة الأطهار لعلي الحسيني الميلاني، قم: مؤسسة البعثة.
- بنو هاشم، الحسين، (٢٠١٤م)، نظرية الحجاج عند شاييم بيرلمان، بيروت: دار الكتاب الجديدة المتحدة.